شعراء عباسيون في غياهب السجون

إعداد

الدكتور: محمد حسين عبد الرحيم السماعنة

شعراء عباسيون في غياهب السجون

إعداد

الدكتور : محمد حسين عبد الرحيم السماعنة

الملخص

لما وجد الباحث أن عددا كبيراً من الشعراء العباسيين المشهورين أو المغمورين قد ذاقوا ويلات السجن، وخاضوا في ظلمته، وأرِقُوا في عتمته، وأن أخبارهم وآثارهم موزعة متفرقة في كتب الأدب والتاريخ على غير نظام، جدَّ في البحث عن هؤلاء الشعراء وفي دراسة آثارهم دراسة وصفية نفسية إذ وجد الباحث أن أصلح مرتكز لفهم شعر السجون هو البدء من الحالة النفسية للسجين في سجنه، وأن الشعر الذي خرج من السجن لا يمكن تذوقه بعيدا عن القيد والسجان والظلمة والقضبان، وصراع السجين مع عالمه الجديد القاسي، ومعاناته المخوفة؛ وأن ذلك مفتاح قصائد المدح والرثاء والاستعطاف والتوسل والبكاء ،والحنين والشوق فبحث في أشعار هؤلاء عن الشكوى من السجن وسكونه وظلمته وغلظة السجان وإزعاجه وسوطه، وليل السجن الطويل وعتمته ،وبين الباحث آثار الخوف والتعب والألم في شعرهم السجني، وتلمس الباحث نظرة الأمل في أشعارهم وهم يرقبون الغد وكابوس الوحدة يملأ عليهم أيامهم ليحسبوها ويعدوها عدا.

ونظر الباحث في شعر شعراء السجون عن الحياة وما فيها من صيف وشتاء ومدح وهجاء، ولم يجد الباحث في قصائد السجن ذكرا للحرِّ أو البرد أو المطر و الرعد ولا وجد في شعرهم هجاء أو كثير حديثٍ عن السجن والسجان والحنين والحرمان، والشكوى والعتاب وما فيها من قيد وقضبان، وطعام وشراب، وتحد وصمود ووهن واستسلام، وأنفة أو ذل، وتصبر أو توسل واسترحام .

وتتبع الباحث أسباب سجن الشعراء المتعددة المتنوعة، وعرض العجيب المستطرف منها، والغريب المستهجن فيها، ثم خاض في ملامح هذا الشعر وخصائصه ليستخرج ما انماز به، وما تغلب عليه.

Research Title:

Poets of Abbasids in the prisons

Author :

Dr. Mohammed Hussein Abdul Rahim Al - Samana

Abstract

The researcher found that a large number of famous poets or submerged Abbasid had subjected to the horrors of the prison, and feeling with its injustice, and they were very tired in its darkness, and that their news and their effects were distributed among scattered different books of literature and history according to unstructured system, there were more and great hard efforts for producing psychological descriptive study in the search for these poets and the study of their effects.

The researcher found that the most correct way to understand prison's poetry is to start from the psychological state of the prisoner in his prison, and that the poetry that came out of prison can not be without the feeling with the restriction, the prisons, the darkness and the bars, and the prisoner's struggle with his new harsh world and his fearful suffering, And that would be the beginning to elegiac , entreaty , appeal , tenderness , weeping and desire poetry , so he researched at the poems about these complaints related to the prison and silence and injustice and the hardness of the jailer and his disturbance and whip , and the long night of the prison and its darkness and the researcher explained the effects of the fear and fatigue and pain in their prison poetry and the researcher looked hope in their poetry as they were looking forward to tomorrow while the nightmare of loneliness filling their days to calculate the day after day.

The researcher looked at the poetry of prisoner poets regarding with the life and the summer and winter, praise and lampoonery The researcher did not find in the poems of the prison any mention of the sea or the cold or the rain and the thunder, and there is no speech in their poems about lampoonery or more speech about prison , jailer , deprivation or tenderness , complaints , reproach including restrictions and limitations and bars , food and drink , challenge , defiance and steadfastness and weakness and surrender, and pride or humiliation, and patience or solicit and Petition .

The researcher follows the various different reasons for the imprisonment of the poets, and the displayed the strangest, most extreme, and the most hated of it, and then concentrated in the features of this poetry and its characteristics to extract its advantages and disadvantages .

المقدمة

كان لكلمات أستاذي الدكتور ياسين عايش عن شعراء السجون في العصر العباسي وقع عظيم على فؤادي، فاخترت أنْ أكتبَ عن هؤلاء الشعراء الذين عاشوا في غياهب السجون، وجرَّحتهم القيود والسلاسل، وقهرتهم القضبان، وأذلهم السجن والسجان، فجاءت قصائدهم مضرَّجة بآثار السجن، وكلماتُهم مثقلةً بالمعاناة.

وكانت أسئلة كثيرة تُلِحُ عليَّ عندما اخترت هذا الموضوع، أسئلة حدودها واسعة ، وأصحابها تجمَّعوا واصطفوا لتسجيل أسمائهم على لائحة طويلة ممتدة على صفحات تاريخ طويل، جمعت الغنيَ والفقير، والمواطن والأمير، والعبد والسيِّد، والتقي والسِّكير، والرجل والمرأة. وتزاحمت أشكال المُعاناة وصور التعبيرِ عنها في قصائد شعراء السجون أمامي، ففي شكواهم أنينٌ مُستفِز، وفي حنينهم وتر مقلق ، وفي استعطافهم وجع قاس، وفي عتابهم دموع دفينة، وفي وصفهم أوجاعٌ وعِصي ورجالٌ غلاظ شداد، وقبورٌ وصلبان، وفي فخرهم حرارة روح، وفي مدحهم ذلُّ السؤال وكفُّ الرجاء،وفي رثائهم مواساة واسترحام.

وقد سبقت أقلام الباحثين إلى الكشف عن معاناة الشعراء العرب في السجون، وأوغلت في تحليل قصائدهم، وتشريح معاناتهم، فقد تحدث الدارسون عن الاستعطاف والاسترحام والشكوى والحنين والسجن والسجَّان في قصائد شعراء السجون التي تخرَّجت فيها وأينعت خلف القضبان(١)، ولما كان السجن معاناة نفسية تغلفه المعاناة الجسدية، وكان السجين مليئا بعذاب النفس، يحيه الأمل، وينهش جسده اليأس، لم أنظر إلى آثار السياط في أجسادهم وحسب وإنما نظرت إلى عيون السجناء وبحثت فيها عن خوفهم وطمعهم واطمئنانهم، ويأسهم ورجائهم، وتعبهم وراحتهم، وبحثت فيها عن قضبان السجن، ونظرة الجلاد، وكلمات السَّجان؛ فجاء هذا البحث في فصل وخاتمة وملحق، وقد اختار الباحث المنهج الوصفي التحليلي، والمنهج النفسي ليتحدث عن الشاعر العباسي في مواجهة السجن والسجان، في شكواه وبكائه، وفي خوفه واسترحامه واستعطافه، وفي شوقه وحنينه لأهله. وأما الملحق فقد جمع فيه الباحث ما استطاع إليه سبيلا من أسماء الشعراء

العباسيين وما يفيد من أخبارهم ممن كبَّلتهم قيودُ السجان، وجرَّحتهم سلاسلُه، وخنقتهم ظلمة السجون، وسحقتهم أيدي قضبانها.

وبعد اختيار هذا الموضوع أدركت ثقل الحمل الذي حملت ، لأن حروف الموضوع منثورة بين الموضوعات الشعرية لشعراء السجون، ولأن البحث سيكون عن المشاعر لا عن الصور، ولأن

١- انظر : المصري، علي أحمد عباس، تجربة السجن عند شعراء العصر العباسي ، رسالة دكتوراه ، إشراف أ.د خليل محمد عودة ، جامعة الأقصى، ٢٠٠٧، وأحمد مختار البرزة ، الأسر والسجن في شعر العرب ،وعبد العزيز الحلفي، أدباء السجون ويحيى الجبوري، محن الشعراء والأدباء وما أصابهم من السجن والتعذيب والقتل والبلاء.والتميمي، السجون في العصر العباسي .

العصر العباسي ممتد واسع أكل عقودا وقرونا، وطوى ملوكا وخلفاء ،وأشعاراً وشعراء .

وقد ربط النُّقاد بين الشعر والحالات النفسية الموجبة لقوله، أو ما يصلح لهذه الحالات من الأغراض الشعرية، فقالوا: قواعد الشعر أربع :الرغبة، والرهبة، والطرب، والغضب؛ فمع الرغبة يكون المديح والشكر، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف والاسترحام، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد، والعتاب الموجع. ولعل السجن يثير أكثر ما يثير عاطفتي الرهبة، والغضب، ولا ننفي أنه قد يثير بقية العواطف.

وشِعرُ السّجن ظاهرة بارزة واضحة في شعر العرب منذ العصر الجاهلي،ولكنها ظهرت وبرزت في العصر العباسي ،ففيه سُجن الشاعر لأنه هجا، وسُجن لأنه مدح ، وسُجن لأنه قال شعراً ، وسُجن لأنه لم يقل ، وسُجن بسبب، وسُجن بلا سبب؛ فقد رافق وصول العباسيين إلى الحكم كثيرٌ من الخلافات الفكرية والسياسية، وانبثقت من هذه الخلافات كثير من الحركات السياسية، والفِرق الفكرية ،والجماعات الدينية التي عادى بعضها السلطة العباسية، وعادى بعضها بعضا. ولم تتهاون الدولة العباسية مع خصومها ،فألقتهم في غياهب السجون مع الشطَّار، والزنادقة والماجنين؛ فقد سَجن الرشيد أبا العتاهية لأنه تنسَّك ولبس الصوف وامتنع عن قول شعر الغزل(١)،وقد سَجن المستعينُ أبا

العبر لأنَّه عارٌ على بني هاشم (٢)، وسُجن صالح بن عبد القدوس لأنه اتهم بالزندقة(٣)،وسُجن المتنبي لأنَّه ادَّعى النُّبوة ،(٤)وسُجن الحلاج لأن له طريقة في التوحيد تبعه فيها جمع من الناس(٥)،وسُجن محمد الدقيقي لأن قوماً من أهل بغداد تشاهدوا عليه بالرفض(٦)،وسُجن الصيني عندما غضب عليه الطاهر، ومع أن الطاهر ندم على أنه سجنه إلا أنه أبقاه في السجن خوفا من المأمون(٧)،وسجن الرشيد أبا نواس لأنه افتخر بقحطان (٨)، وسُجنت محبوبة عندما غنَّت في رثاء المتوكل(٩)، وسُجن عبد الله الطالبي لأنَّ أبا مسلم الخرساني خاف انتشار أمره (١٠) وتطولُ القائمة وتتعد الأسباب، وتكثر السجون ويكثر السجَّانون.

١- أبو العتاهية ، ديوان أبي العتاهية ، دار صادر بيروت ، ١٩٨٠، ص٤٥٦.

٢- ابن المعتز ، عبد الله ، طبقات الشعراء ، تحقيق عبد الستار فراج ،دار المعارف ، مصر،١٩٥٦،ص.٣٤٢

٣- المرزوباني ، أبو عبيد الله بن عمران ، معجم الشعراء ،حيدر آباد الدكن ، القاهرة ، ١٣٣٨هـ،ص.٢٨٣

٤- العكبري ، أبو البقاء ، ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري، ج٣-٤،ص.٣٦٨

٥- البغدادي،الخطيب ،تاريخ بغداد ،مصر،١٩٣١، ج٨، ص١١٢-١٤١.، وفي الأمر خلاف وآراء .

٦-- ابن المعتز ،مصدر سابق، ص٣٩١

٧- ابن المعتز ،المصدر نفسه، ص.٣٠٣

٨- أبو نواس ، ديوان أبي نواس ، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي ، مصر ١٩٥٣،ص ٤٠٣.

٩- المسعودي، علي بن الحسين ،مروج الذهب ومعادن الجوهر ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٥٨، ص

١٠- الأصفهاني ، الأغاني ،ط٢،دار الكتب العلمية،بيروت،١٩٩٢،ج١٢،ص٢٥٠،٨٦،٨٥-٢٦٦.

إنَّ السجون ملتصقة بتاريخ العرب، منبثقةٌ من حياتهم السياسية والاجتماعية، وأثرها بعيد متأصلٌ في لغتهم وصور أدبهم، فمنذ الجاهلية وأيام المناذرة والغساسنة برم الشعراء بالسجون، وجاء على ألسن المساجين منهم كثير من الشعر في وصف السجون وتصوير أوضاعها ومكارهها، وتصوير عذاب السجناء والحديث عن صبرهم وشجاعتهم ،أو الحديث عن ضعفهم ويأسهم .ولعل للتأثر البالغ الذي يصدر عنه الشعراء والأدباء وهم بين جدران سجونهم نتيجة للأحوال المرهقة الأثر الكبير في أيقاظ ملكاتهم.

أما السجن فقد وجد منذ زمن بعيد ،فهو مذكور في سورة يوسف :" قال ربِّ السجن أحب إليَّ مما يدعونني إليه "(١)، وفي الشعر الجاهلي كثير من رسائل السجناء الشعراء؛ أذكر منها الرسالة المشهورة للقيط بن يعمر الإيادي.

وترتد كلمة السّجن في أصلها اللغوي إلى الجذر الثلاثي (سَجَنَ)، والسِّجن المحبس،والمصدر السَّجن،والسَّجان صاحب السجن ،ورجل سجين بمعنى مسجون، والجمع سُجناء وسجنى. وهو الحبس الذي يُحبس أو يُسجنُ فيه الشخص ، ومعناه المطلق :الإمساك والمنع ، وهو اسم مكان (٢).

أما كلمة الأسر فهي ترجع في أصلها اللغوي إلى الجذر الثلاثي أَسَر، فالهمزة والسين والراء، أصل واحد وقياس مطَّردٌ ،وهو الحبس والإمساك وكانوا يشدون الأسير بالقدِّ،وهو الإسار، فسمي كلُّ أخيذٍ ،وإن لم يؤسر، أسيراً.أما تعاملي في هذا البحث فهو مع السجين لا أعدوه إلى الأسير، فقد قصرته على الشعراء العباسيين الذين ضاقوا مرارة السجن في بلاد الخلافة العباسية بأمر منها ،أو بأمر من أحد أدواتها.

إنَّ السجون في العصر العباسي أنواع: سجون مركزية منها: سجن الهاشمية في الكوفة،وسجن المَطْبِقِ في بغداد(٤)، وسجن باب الشام، والسجن الجديد في بغداد،وسجن سامراء. وسجون المطامير (٥)، والسجون الخاصة: وهي سجون سرية تحمل طابع الخصوصية، يسجن فيها كبار القادة،وتكون هذه السجون دور، أو حجرة في قصر، أو في دار وزير، أو دور الموالي .

ومن أنواع السجون: النفي إلى جزيرة دهلك ،أو إلى جزيرة إقريطش(كريت)، أو إلى البحرين،أو إلى البصرة(٦).

١- **سورة يوسف ،آية ٣٣.**
٢- ابن منظور ، لسان العرب،مادة سجن.
٣- ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ،مادة أسر.
٤- سمي هذا السجن بالمطبق كناية عن حصانته لأنه سجن تحت الأرض ، فكان يطبق على المسجون ، فيحول بينه وبين الضوء.(ابن منظور لسان العرب، مادة طبق.)
٥- جمع مطمورة ، وهي حفرة ، تحت الأرض .

٦- انظر : المصري ،عباس علي أحمد ، تجربة السجن عند شعراء العصر العباسي ، رسالة دكتوراه ، د، أمينة محمد جمال الدين مشرفا،جامعة النجاح، ٢٠٠٧،ص٣٠.

الخوف والرهبة من السجن في العصر العباسي

لقد توجس كثير من الشعراء العباسيين خيفة من السلطة العباسية؛ من بطشها، ومن وتقلبها وتُظهر كثيرٌ من الروايات والأخبارِ أنَّ السلطة العباسية في مراحل من تاريخها قد نشرت الرعب والخوفَ والذعر في نفوس الرعية؛ أدبائها وعلمائها، فهم يتوقعون السجن أو الصلب في أي وقت، وهم كلهم كانوا في دائرة مزاج الخليفة، أو تحت مجهر الباحثين عن الكراسي الذين ينوش بعضهم بعضا، وينوشون بطريقهم كل عابر، ويجرحون بوشاياتهم كل ساع إلى ساحتهم .

يروى أن الرشيد أمر ذات يوم بحمل أبي العتاهية إليه، وأن لا يُكلَّم في طريقه، ولا يُعلم ما يراد منه، فلما صار في بعض الطريق كتب له بعض من معه: إنما يُراد قتلك ،فقال أبو العتاهية :

ولعل ما تخشاه ليس بكائنٍ ولعل ما ترجوه سوف يكونُ

ولعل ما هوَّنتَ ليس بهيِّنٍ ولعل ما شدَّدت سوف يهونُ(١)

ولعل فيما قاله الرشيد ليزيد الشيباني ما يوضح مظهراً من مظاهر استبداد السلطة على الرعيَّة وأرباب الفنون والأدباء:" أتظن يا يزيد أني أوطئك فراشي وبساطي، وأقلدك أمري وأنا لا أعرف سرائرَك ومخابئك؟ والله إنَّ عيوني عليك حتى فراشك، فلا تجعل على نفسك سلطانا، هذا جلف من أجلاف ربيعة آويته عندك، ومكَّنته من مجلسك،فقال ما قال، فأتني به حتى أعرّفه نفسه ليعلم أنَّ ربيعة ليست كقريش" (٢). والروايات عن العلاقة المتأزمة بين السلطة العباسية والشاعر كثيرة ومتنوعة، ولكنها تُجمع على أنّ الخليفة العباسي قد دثّر الشعراء بدثار من الرهبة والخوف .

ونجد في ديوان دِعبِل الخزاعي إشارةً إلى تحكُّم هؤلاء وبطشهم ،ونجد انتقاداً لسلوكهم، واستنكاراً لعملهم،بعد أن أحاطوا أنفسهم بغير العرب، واحتموا بهم، وأخذوا بمشورتهم يقول:

لقد ضاع ملك الناس إذ ساس ملكهم وصيفٌ وأشناس وقد عظم الكربُ(٢)

ولعل السجين هو الأكثر خوفاً، فالخوف من فَقْد جوائز السلطان خوف مشروع ؛لأنه خوف على الموقع والمكانة، وخوفً من فقد الدنيا المطلوبة: وجُوداً وحرية ورزقاً وكرامةً ومكانة وثروة... لأن السلطان كان المتحكم الوحيدَ بالإنتاج وتوزيعه، وإنَّ حرمان الشاعر من "العطاء" كان يعني آنذاك أن يترك حياً كميت. فكان الشاعر يخاف من أن يترك هكذا، يقول أبو دلامة :

ولو مَعهم سجنت لكان سهلاً ولكني **سُجِنْتُ** مع الدَّجاجِ(٣)

١- أبو العتاهية ، ديوان أبي العتاهية ،دار صادر، بيروت،١٩٨٠، ص٤٣٧.

٢- - ابن المعتز ، طبقات الشعراء، ص ٢١٧-٢١٨

٣- الخزاعي ،دعبل بن علي، شرح مجيد طراد ،دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٨،ص ٢٥.

أنْ يسوق شرطي شاعراً كبيراً مثل أبي دلامة، **ويسجنه** مع الدجاج، ثم يقول أبو دلامة مثل هذه الأبيات الخفيفة الخالية من الغضب الظاهر، وإنْ كانت تشير إلى ألم عظيم يعتور نفس الشاعر، لدليل على خوف من السجن وخوف من الموت ذلاً أو جوعاً .فالبرغم من محنته ووجعه وضيق سجنه وإذلاله يؤكد أبو دلامة متانة العلاقة مع الخليفة خوفاً من انقطاع عطائه ،وخوفاً على الحياة والحرية والرزق،وقد أثمر هذا الخوف نوعاً من الشعر يمكن أن نسميه شعر استجداء الكرامة ولقمة الخبز في شعر السجون، كما في قول أبي العتاهية :

ألا شافعٌ عند الخليفة يشفعُ فيدفع عنَّا شرَّ ما يُتَوَقعُ (١)

ويقول:

فمن ليَ بالعين التي كنتَ مرة ، إليَّ بها في سالف الدهر تنظرُ(٢)

والخوف على الأولاد والزوجة والأهل من الجوع والمهانة والعوز ،إذا بقي معيلهم في السجن، خوفٌ مقلق وخطير على النفس يسبب الجزع والأرق، والقلق، يقول تميم بن جميل :

ومـــا جزعـــي مـــن أن أمـــوت وإنـــني ... لأعلـــم أن المـــوت شـــيء مؤقَّـــتُ
ولكـــن خـــلفي صـــبية قـــد تركتـــهم ... وأكبـــادهم مـــن حســـرة تتـــفتتُ
كـــأني أراهـــم حـــين أُنعـــى إليـــهم ... وقـــد خمشـــوا تلـــك الوجـــوه وصـــوّتوا
فـــإن عشـــتُ عاشـــوا خافـــضين بغبطـــة ... أذود الـــرّدى عـــنهم وإن مـــتّ موّتـــوا
وكم قائل لا يبعد الله روحه .. وآخر جذلان يسرّ و يشمتُ(٣)

وخوف الرجال مرٌّ طعمه ، صعب فهمه، والتصريح به كشف للمستور ، وتشهيرٌ بما في الصدور ، يقول ابن عاصم : أتعاطى شجاعة أدعيها في القوافي لقلبي المصدوعِ

بمقال أعزُّ من ليث غاب وفعالٍ أذلُ من يربوعِ
كلَّما هرَّ في جواريَ هرٌّ كاد يُفضي إلى فؤادي المروعِ

(٤)

الخوف في **السجن** سلسلة متصلة من المخوفات، يعيش معها الشاعر أيامه ولياليه الطوال ، إن تغلَّب على خوف تصدى له خوف مثله، فكثيرة هي الأمور التي تخيف السجين منها:الخوف من الموت، والخوف من الجوع ،والخوف من العذاب، والخوف على الأهل ،والخوف من القيل والقال .وقد ظهر الخوف في قصائد شعراء السجون في العصر العباسي ، في كلماتهم وصورهم ، فإن اختفى خوفهم في بيت من أبيات قصائدهم فضحته بقية الأبيات .

١- أبو دلامة ، ديوانه ، تحقيق إميل بديع يعقوب ، دار الجليل ، بيروت ، ١٩٩٤ ، ص ١٣٠.

٢- أبو العتاهية ، ديوانه ، ص ٥٧٤.

٣- المصدر نفسه،ص٢١٥.

٤-الحموي،معجم البلدان ، رحبة مالك بن طوق.

التحدي والصبر

السجن من الأماكن التي يَعزُّ فيها الصبرُ ،وتقلُّ فيها كلمات الرفض ،وتهترئ فيها أنفاس المتمردين، وتَكِلُّ فيها أيدي المحتجين، وتنعقد فيها ألسنة المُتَحَدِّين ،وقد كُتب على باب أحد السجون في العصر العباسي:"هذه منازل البلوى، وقبورُ الأحياء، وتجربةُ الصديق، وشماتةُ الأعداء، تنزو وتلين" ولعل مشاعر السخط والنقمة هي المشاعر الحقة "التي ملأت نفوس من دخل السجن من الشعراء ، وكانت إذاعتها تضر بها صاحبها وتؤخر خروجه من حبسه إن لم تُودِ بحياته"(١) ولا نعدم وجود شاعر عبَّاسيٍّ تحدى السجن، والسجَّان، وصَبَرَ على ظُلمةِ السَّجن ،وعلى وجع قيوده ،يقول إبراهيم ابن المدبّر:

تَسلي ليسَ طولُ الحبس عارا وفيه لنا من الله اختيارُ
فلولا الحبس ما بلي اصطبارٌ ولولا الليل ما عُرف النهارُ
وما الأيام إلا مُعْقِباتٌ ولا الُّسلطانُ إلا مُستعارُ
سيفرجُ ما ترين إلى قليلٍ مقدرة وإن ْ طال

الإسارُ(٢)

يروض الشاعر نفسه على الصبر والتحمُّل، في مجموعة من الآراء والحكم، فهو يرى أن السجن ليس عاراً لأنه اختيار من الله وقدر مقدَّر، ويعلن تحديه للسجان وقبوله خوض معركة الصبر مسلحا بإيمانه بالله، ومؤمناً بأنَّ السجان سينتهي ،وأن السجن سيزول ويندثر .والتحدي الذي يخوضه الشاعر في الأبيات السابقة هو تحد للسجن لأن السجن اختبار لصبر الشاعر ، وتحد للسلطان السجان لأن الشاعر قد أنذره بزوال سلطانه،وذكَّره بأنَّ الأيام دول ، وأن الليل سينجلي مهما طال .

وقال المتنبي في أبي دلف ، وقد توعده في الحبس بالبقاء :

أهون بطول الثواء والتلف والسجنِ والقيد يا أبا دلفِ
كُنْ أيّها السّجنُ كيفَ شئتَ فقد... وَطّنْتُ للمَوْتِ نَفْسَ مُعترِفِ

لوْ كانَ سُكنايَ فيكَ مَنقَصَةً... لم يَكُنِ الدُّرُّ ساكِنَ الصَّدَف(٣)

يشير المتنبي إلى شجاعته وصبره في مواجهة السجن ويتحداه "كن كيف شئت" من الشدة فإنه صابر عليك؛ فهو قوي القلب يرى مقامه في السجن هيِّنا ،لأنه وطَّن نفسه على الموت وعلى مثل هذه الأشياء، فالدُّر لا يعيبه أن يكون الصدف سكنه.

ومن صور تحدي السجن والسجّان المحاججةُ، وفيها يدافع الشاعر عن نفسه، ويسأل عن سبب سجنه ، ويدفع عن نفسه التهم التي سُجن بها ، فهي كيد حاسد ، أو كذب مدَّع. وقد ينتقد الشاعر الطريقة التي حُكم عليه بها، والمحكمة التي ألقت به إلى السجن، يقول ابن الجهم :

١– البرزة، وأحمد مختار، الأسر والسجن في شعر العرب تاريخ ودراسة،مؤسسة علوم القرآن ، دمشق،١٩٨٥. ،ص٤١٥.

٢–الأصفهاني، أبو الفرج،الأغاني ،دار إحياء التراث العربي، ط٢،بيروت،١٩٩٧ ج٢٢، ص٣٧٨.

٣–العكبري ،أبو البقاء ، ديوان أبو الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري،دار الفكر ،د ت ،ج٢ ، ص ٢٨٠.

أمِنَ السَّويَّةِ يا بن عمِّ محمدٍ خصمٌ تقربه وآخر تبعدُ؟(١)

إنَّه تحد واضح ، واحتجاج تجاوز عظام الصدر؛ وكلام غاضب أوجعه الظلم وآلمه.

والاحتجاج على السجن هو نوع من التحدي ، لأنه يشبه قول (لا) ، بل إنه نوع من أنواع الرفض في ذلك العصر، فإنْ لم يحسن الشاعر قول (لمَ)قد يكون مصيره الصلب أو الموت في غياهب السجون، وَنَجِدُ هذا الاحتراس والخوف والحذر في قول أبي نواس الذي رفع صوته بالشكوى ، وأعلن أنه مسجون منذ ثلاثة شهور على غير ذنب، فظهر في شعره الخوف والاغتمام وتخوف من الموت ومن أن يُنسى في غيابة السجن ،يقول :

مضت لي شهورٌ مذ حُبستُ ثلاثةٌ كأني قد أذنبتُ ما ليس يُغْفَرُ

فأنْ كنْتُ لمْ أُذنِبْ فَفِيمَ حَبَسْتَنِي وإنْ كُنْتُ ذا ذَنْبٍ فَعَفْوكَ أكْبَرُ(٢)

استخدم الشاعر شهورا ولم يقل أشهرا للدلالة على أثر طولها في نفسه، وقدّم شبه الجملة للتذكير بأن أبا نواس هو من يتكلم، وأنه موجود في السجن .

ونجد إشارة أخرى إلى مدة الحبس في شعر أبي العتاهية، فهو يقول بنبرة لا تخلو من الغضب،وبأنفاس محتجة منددة :

أنا اليوم لي، والحمد لله ،أشهر يروح عليَّ الهمُّ منكم ويبكرُ(٣)

ويشكو أبو نواس إلى الله الذين حبسوه على فعل هم يفعلوه، جرى فيه معهم في ميدانهن ،وهو ميدان خزي ومجانة لا ميدان تعطيل وكفر ، فهو ماجن لا زنديق، يقول :

يا ربِّ إنَّ القومَ قد ظلموني وبلا اعترافِ مُعطِّلٍ حَبَسوني

وإلى الجُحُودِ بما عَليه طَوَيتَنِي ربِّي إليكَ بِكذبهم نسبوني

ما كان إلا الجريُ في ميدانهم في كلِّ خِزيٍ والمجانة ديني (٤)

يشير أبو نواس إلى النِّفاق الذي يغلِّف كثيراً من المسؤولين؛ ففي سلوكهم ازدواجية مفضوحة ، "يحتشمون أمام العامة، ويطلقون لأنفسهم عنان اللذات في مجالسهم الخاصة "،(٥)ويشكو أبو نواس إلى الله الذين حبسوه على فعل هم يفعلوه، ويسأل أبو نواس عن سبب حبسه، بل هو يحتج على بقائه في السجن تلك المدة الطويلة ،ولكنه يحتج بلغة الحكماء التي لا تقطع حبلا، ولا تجلب إحنا،ولا تزيد غضبا، فمع السؤال رقة في الطلب ورجاء بالعفو ،وحرص على بقاء الود؛ فالسجان هو الخصم والحكم ، والراعي والمطعم فلم يكن همُّ الشاعر أن يخرج من السجن هو الهم الوحيد وإنما كان هناك سجن الجوع

١- ابن الجهم ،علي ، ديوان علي بن الجهم ، تحقيق خليل مردم بك، دمشق ، ١٩٤٩، ص ٤٦-٤٧.

٢- أبو نواس ، ديوانه ، ص ٤٢٦.

٣- أبو العتاهية ، ديوانه ،ص٥٣٥.

٤- أو نواس ،ديوانه ،ص.٥٩٦

٥- البرزة ، الأسر والسجن في شعر العرب ،ص٣٣٥.

إنْ حَبَسَ الوالي عطاءه أو جافاه ومنع لقاءه أو نفاه .

والفخر بالنفس أو بالقبيلة جزء من التحدي ؛يتحدث فيه الشاعر عن نفسه التي يعمل السجان على قتلها ،ويمدح فيه نفسه التي تعاني قبضات الموت المتعددة في السجن ،ويشيد الشاعر بنفسه على مسمع من السجن والسجان والقيد والقضبان،والألم والسلطان، فهذا جعفر بن علبة الحارثي الذي سجن بسبب وشاية من أهله في قتل رجل من عقيل، يقول من سجنه :

فلا تحسبي أني تخشَّعتُ بعدكم لشيءٍ ولا أني من الموت أفرقُ
ولا أنا ممن يزدهيه وعيدكم ولا أنني بالمشي في القيد اخرقُ
وكيف وفي كفِّي حسامٌ مُدلَّفٌ يَعَضُّ بهامات الرجالِ ويعلقُ (١)

والتحدي قد يمتد وتكبر دائرته في نفس الشاعر ليشمل الوقوف أمام كل شامت أو واش ؛ فقد جاء في الأخبار أن أبا إسحاق إبراهيم الصابئ سُجن فشمت الشامتون ، وتشفى المتشفون فقال قصيدة وازن فيها بين حاله في سجنه وبين هؤلاء الطلقاء الذين عيَّروه بالسجن :

يُعيِّرني بالحبس من لو يحلّه...
حلولي لطالت واشمخرت مراكبهُ
وربّ طليقٍ أطلق الذلُّ رِقَّه...
وَمُعْتَقَلٍ عانٍ وقد عزَّ جانبُه
وإنِّي لقِرنُ الدَّهرِ يوماً تنوبني...
سُطاه ويوماً تنجلي بي نَوائبُه
ومنْ مدَّ نحو النَّجمِ كيما يَنَاله...
يداً كَيَدِي لاقته أيدٍ تجاذبه(٢)

رأى الشاعر أنه قد يكون من بالسجن أشرف من الطليق، وبيَّن أن سجنه كان في طلب المجد والرفعة، وأن السلطان هو خصمه ، ومَنْ يكن السلطان سبب سجنه فلا عار في الغصب الذي هو غاصبه . يقول الشاعر كل هذا التحدي وهو مسجون مُقيَّد ، يحركه

غضـــــــــــــــبه .

ويقول ابن الجهم في قصيدة من حر الشعر العربي ، بكرٍ في معانيها مُطربة في رويِّها وقوافيها ،لعله لم يُقل في معناها مثلها فهي عندي من محاسن شعر الحبوس، يصور الشاعر فيها نفسه وهو في سجنه سيفاً إلا أنه مُغمَدٌ، وهزبراً في عرينه،ويسلي نفسه بكثير من التشبيهات والصور البيانية، يقول:

قالت حُبستَ، فقلتُ: ليس بضائرٍ حبسيْ، وأيُّ مهنَّدٍ لا يُغمَدُ؟!
أوَ ما رأيتَ اللَّيثَ يألفُ غِيْلَهُ كِبْراً، وأوباشُ السِّباعِ تردَّدُ؟

١-الأصفهاني ،الأغاني ،، دار طبعة الساسي ، مصر ، ١٣٢٣هـ ، ج١٠،ص٣٧.

٢- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ،شرح وتحقيق الدكتور مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت ،١٩٨٣، ج٢،ص٣٢٢.

والبدرُ يُدركهُ السِّرارُ فتنجلِي أيّامهُ وكأنَّهُ متجدِّدُ
والنَّارُ في أحجارها مَخبُوءَةٌ لا تُصطلى ما لمْ تُثرْها الأزندُ
ولكلِّ حالٍ معْقبٌ ولربَّما أجْلَى لكَ المكروهُ عمّا تَحمدُ
والحبسُ - ما لمْ تغْشَهُ لدَنِيّةٍ تزريْ - فنعم المنزلُ المتورَّدُ(١)

وهذا جعفر بن علبة الحارثي يتحدث عن شجاعته في مواجهة السجن وصبره على محنته، فيقول :

ويصبر فيه ذو الشجاعة والنَّدى على الذل للمأمور والعلج والوالي(٢)

لعل الصبر في السجن لا يدانيه صبر؛ فهو صبر على أمور عدة :فقد، وفراق ،وذل، وألم ، ووجع، وشوق وحنين ،ووحدة ، وقلق، وانتظار وترقب ، وقسوة وعذاب ، وحرمان وسلب.وعندما يتحدث الشاعر ابن علبة عن صبره في السجن فإنه يشير إلى تلك الأمور التي يصبر عليها وحملتها كلمات:العلج والمأمور والوالي بما تحمله كل كلمة من مخزون إيحائي عن تاريخ السجون لدى القارئ .

والفخر بالنفس أو بالقبيلة جزء من التحدي والصبر ،يتحدث فيه الشاعر عن نفسه التي يعمل السجان على قتلها ،ويمدح نفسه التي تعاني قبضات الموت المتعددة في السجن ،ويشيد بها على مسمع من السجن والسجان والقيد والقضبان،والألم والسلطان ،

فهذا جعفر بن علبة الحارثي الذي سجن بسبب وشاية من أهله في قتل رجل من عقيل ، يقول من سجنه :

فلا تحسبي أنِّي تخشَّعتُ بعدكم لشيءٍ ولا أني من الموت أفرقُ
ولا أنا ممن يزدهيه وعيدكم ولا أنني بالمشي في القيد اخرقُ
وكيف وفي كفِّي حسامٌ مُدلَّفٌ يَعضُّ بهامات الرجالِ ويعلقُ (٣)

ويتعجَّبُ إبراهيم بن المدبِّرِ من إطباق أبوابِ السجن على رجل مثله ؛كريم جواد ويتعجب من عدم تصدعه أو وهيه لمَّا حَلَّ به .ويفخر بنفسه فيرى أنَّ السجن يفاخر به :

عجبٌ له كيف التقت أبوابه والجود فيه والغمامُ الباكرُ
هلا تقطَّع أو تصدَّع أو وهى فعذرته لكنه بي فاخرُ (٤)

هذا الفخر بالنفس أمام سوط السجان،وصلابة القضبان ،فيه إشارة إلى كرم نفس وثبات رَجُلٍ وصبر مؤمن، وتحد لعتمة السجن القبر؛ ففي لفظة (هلا) أنفاس حارة متحديةٌ حملت أمواجها الكلمات الثلاث المتدحرجة المتتابعة المضعفة كتتابع أنفاس الشاعر، وهي تعاتب السلطة التي سجنت هذا الغمام . ومن صور تحدي السجن الهجاء ؛ هجاء الخليفة أو السجان أو السجن أو الشامتين . ولعل أوضح

١–ابن الجهم ، ديوانه ، ص٤١–٤٣.
٢– الأصفهاني ، الأغاني ، ج١، ص.٣٤
٣–الأصفهاني ،المصدر نفسه ، ج١٠،ص٣٧.
٤– نفسه ،ج١٩،ص١١٥.

صورة على التحدي بالهجاء، قول عبد الله بن علي بن العباس في هجاء المنصور :

نقضَ العهدَ خائنٌ بالأمانِ مُستَحلٌ محارمَ الرَّحمنِ (١)

وهجا أبو إسحاق الصابئ السجان فقال :

والله ما سمع الأنام ولا رأوا بشراً توكَّل قبلهم لقرودِ (٢)

وهذا سديف يهجو أبا جعفر ،فيقول :

أسرفتَ في قتل البريَّةِ جاهدا فاكف يديك أظلها مهديها (٣)

والتَّمسك بالحياة وعدم فقدان الأمل هو نوع من أنواع التحدي لأن فيه إشارة إلى إصرار الشاعر على الحياة ، وإشارة إلى زوال اليد التي سجنته . وقد بشَّرَ كثيرٌ من الشُّعراء بالفرج بعد الشدة، وبانكسار القيد،وانجلاء الظلمة ، وذهاب العتمة ،يقول علي بن الجهم :

لا يؤْيِسنّكَ مِن تفرّجِ كُرْبةٍ خطبٌ أتاكَ به الزّمانُ الأَنْكدُ
صبراً فإنّ اليومَ يتْبعهُ غدٌ ويدُ الخليفةِ لا تطاولها يَدُ(٤)

ومن صورِ التَّحدي والصَّبْرِ تشبيه القيد بالخلخال، وتشبيه السَّجن بالقصر، يقول أبو إسحق الصابئ :

الحبس قصرٌ لكلِّ حرٍّ والقيدُ خلخالٌ لكلِّ فحل (٥)

انتقلت هذه الصورة التي رسمت للقيد في العصر العباسي إلى أغاني العامة في العصر الحديث وهم يصارعون القهر والذل وعتمة الليل الطويل في السجن ، ففي الغناء الشعبي الفلسطيني نجد أغنية فيها تلك الصورة تقول الأغنية : السجن لي مرتبة والقيد لي خلخال

ولما رأت الحجناء قيود أبيها نصيب الأصغر بكت، فقال قصيدة كرر فيها نداء ابنته حجناء خمس مرات، وصبَّرها، وذكرها بحتمية الموت، وأنه أخذ من الدنيا ما كُتب له، وهي قصيدة تفيض حبا لابنته، وإشفاقا عليها مما رأت من سوء حاله وتبدلها، يقول :

لقد أصبحتْ حجناء تبكي لوالد بدرة عين قلَّ عنه ثناؤها
أحجناء صبراً ككلُّ نفسٍ رهينة بموت ومكتوبٍ عليها بلاؤها(٦)

تحدى بعض الشعراء العباسيين السجن والسجان والقيد والقضبان،وتنوَّعت طرقهم واختلفت أساليبهم في ذلك التحدي فمنهم من أعلا نفسه ومدح خصالها، ومنهم من احتج وحاجج ،ومنهم من تصبَّر وصبر ودعا إلى الصبر،ومنهم من هجا السجان والسجن .

١- الصولي،أبو بكر محمد بن يحيى، أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم،مصر، ١٩٣٦، ص.٣٠٧

٢- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف ، القاهرة ،١٩٦٥،ج١،ص.٦٣٢

٣- ابن عبد ربه، العقد الفريد ، صج٥،ص .٨٧

٤-ابن الجهم ، ديوانه ، ص٤١-٤٣.

٥-الثعالبي،المصدر السابق، ج٢،ص٢٢٠.

٦ - الأصفهاني ، الأغاني ، تحقيق سمير جابر ، دار الفكر ، بيروت ، د ت ،ج٢٣،ص١٠.

اليأس والشكوى داخل السجن

أيأست الأيام الطويلة التي قضاها الشعراء في السجون كثيراً من الشعراء فقد أصاب الوهن عزائمهم ، وأوهت طوال الليالي هِمَمَهُم فصوروا حالتهم هذه بقصائد تمتلئ أنفاسُ قائليها بالكمدِ والكبد والحزن والرجاء ، بُنِيَتْ على بحر الشَّكوى، وكُتِبَتْ بأحرفِ الخُضُوعِ اقترنَ اليأس فيها بالشَّكوى، وانقلب الصبر والجلد والتصبُّر إلى يأس وقنوط وبكاء وتذلل.

فهذا المتنبي يقول مستعطفاً شاكياً وقد أرهقه السجنُ وأنْحله البِلى ، وهدَّته مقاساةُ القيد :

دعوتك عند انقطاع الرجا ء والموت مني كحبل الوريدِ

دعوتك لما براني البِلى وأوهن رجليَّ ثقل الحديد(١)

وهذا إبراهيم الموصلي يصرخ شاكياً من غيابة السجن،وقد أثقلت عليه الليالي وحشة ووحدة،وأورثه القيد وجعا :

ألا طال ليلي أرعى النجوم أعالج في الساق قيداً ثقيلا(٢)

ويقول ابن المعتز :

تعلمت في السجن نسج التكك وكنتُ امرأً قبل حبسي ملكْ

يكشف البيت السابق عن إحساس قاتل بالذل ، فالشاعر لا يريد إخبارنا أنه تعلم مهنة التكك وإنما يريد أن يقول إنه كان ملكا ، فهو يشكو ما صار إليه حاله،بإظهار المفارقة بين ما كان وما صار، وتكبر شكوى الشاعر في البيت الثاني إذ يقول :

وقيِّدت بعد ركوب الجياد وما ذاك إلا بدور الفلكْ (٣)

يوازن الشاعر بين حاله في السجن وحاله قبل السجن ، فهو يرسم صورتين متناقضتين عنوانهما كنتُ ملكاً، والآن أنا سجين .

إن مواجهة الشاعر السجنَ بصبرٍ وشجاعة ليست هي العنوان الوحيد في سجل المواجهات بين الشعراء العباسيين والسجن والسجان ، فهناك من الشعراء من قلَّتْ قدرتُه وضَعف تَحمُّله،فسالت دموعه،وانسكبت كلماته تتذلل وتستعطف، فقد عيل صبره ، وطال في السجن مكثه ، فوهى جسده وأحرقه إلى أهله شوقه،فشكا وبكى ،يقول عليُّ بن الجهم :

فقلتُ لها والدمع شتى طريقُه ونارُ الهوى بالشوق يُذكى وقودُها
إذا سَلِمت نفسُ الحبيب تشابهتْ صروفُ الليالي سهلُها وشديدُها
فلا تجزعي إمَّا رأيتِ قيودَه فإنَّ خلاخيلَ الرجال قيودُها

١- العكبري ، شرح ديوان المتنبي ، ج١،ص٣٤٦.
٢-الأصفهاني ، الأغاني ، ج٥،ص١١.
٣- الجاحظ ، عمرو بن بحر ، المحاسن والأضداد ، تحقيق عاصم عيتاني ، داراحياء العلوم ، بيروت ، ١٩٨٦، ص٣٦.

ولا تنكري حال الرخاء وقوته فإن أميرَ المؤمنين يُعيدها (١)

مزج علي بن الجهم الشكوى بالاستعطاف والاسترحام ، أما الشكوى فهي حاضرة مع الدمع والشوق والقيود ، وذل السجن بفوت حال الرخاء . وأما الاستعطاف فهو ساكن في معاني الأبيات يقوده طيف حبيبة الشاعر بعد أن عرض عليه السجين لوحة حياتِه في السجن. والاستعطاف ساكنٌ في البكاء الحار في مطلع الأبيات، وفي كلام الشاعر للحبيبة ، وفي طلب الرحمة من الخليفة كما هو واضح في عجز البيت الأخير وفي كلمة يعيدها التي تحمل رجاء واستعطافا، وسؤالا واسترحاما فهي وعاء لطلب العفو والمغفرة.

كانت الموازنة بين واقع الشاعر في السجن وواقعه قبله طريق وعر قاس عبَرها الشاعر ليرسم ملامح استسلامه، وعلاماتِ ضعفه، ويعلن انهزامه أمام قيد السجن وظلمته ،يقول أبو نواس :

فلو أنَّ خدنيَّ القريبين أبصرا خضوعي للسجان ما عرفاني (٢)

شكا الشاعر من القيد والسجن والسجان والظلم والوجع، وشكا من تخلي الأصدقاء عنه، يقول أبو إسحاق إبراهيم المعروف بالنديم الموصلي بعد أن سجنه الخليفة العباسي المهدي لإدمانه الشرب،وطالت أيام سجنه ، وتخلى عنه أصدقاؤه :

كثيرُ الأخلاء عند الرخاء ... فلما حُبستُ أراهم قليلا

لطول بلائي ملّ الصديق ... فلا يأمنن خليلٌ خليلا (٣)

ويقول إبراهيم بن المهدي :

تحاماني الصديق وغابَ عني ثقاتُ صنائعي وهمُ حضورُ (٤)

ويشكو أبو نواس السجن ، فهو عنده كدرُ العيش ؛ لأنه يمنعه من حبيبته الأثيرة الخمرِ ، يقول :

كدرُ العيش أنني محبوس واقشعرت عن المُدامِ الكؤوس (٥)

ويشكو السجن فهو عنده قبر ، ويشكو الحياة فيه فهي كيوم الحساب لما تثيره في النفس من خوف واضطراب ،يقول :

إنني جئتكم من القبر والناس محتشدون للحشرِ (٦)

ويشكو علي بن الجهم الوحدة في السجن ،ويصور عذابه النفسي من هذه الوحدة ، يقول :

١-ابن الجهم ، ديوانه ، ص.٥١

٢-أبو نواس ، ديوانه ، ص٥١٧.

٣-ابن الجهم ، ديوانه ، ص ٩٦.

٤-الصولي ، أشعار أولاد الخلفاء، ص٤٨.

٥-أبو نواس ، ديوانه ، ص.٩٨

٦- أبو نواس ،المصدر نفسه ، ص ٤٦١.

إذا جاءنا السجان يوما لحاجةٍ عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا

ونفرح بالرؤيا فجلُّ حديثنا إذا نحن أصبحنا الحديث عن الرؤيا (١)

إنَّ مجيء السجان إلى سجن علي بن الجهم هو أمر عظيم يثير العجب ، وحدث مميز خارق للعادة والمألوف ، وأما البيت الثاني فيشير إلى أن الشاعر قد ضاق ذرعاً بحياة السجن وأن الوحدة الوحشة فيه قد أوجعتاه؛ فحتى الرؤيا في السجن قد صارت عزيزة يهش لها القلب ويتقاسمها السجناء ، لتصبح حديثهم وموطن اهتمامهم .ويقول شاكياً حاله إلى الله، ويصور نفسه في سجنه لا حياً ولا ميْتاً:

إلى الله أشكوْ؛ إنّه موضعُ الشّكوَى وفي يدِهِ كشْفُ المُصيبةِ والبَلْوَى
خرجْنا مِن الدُّنيا ونحنُ مِنَ أهلها فما نحنُ بالأحْياءِ فيها ولاَ المَوتى(٢)

تقدمت شبه الجملة (إلى الله) على الفعل نرفع، ثم جاء الشاعر بموضوع الشكوى (فيما نابنا)التي تحمل إشارات متعددة إلى آلام الشاعر المتنوعة في السجن ،لأن (ما نابنا) عامة الدلالة غير محددة بحدود، وهي سبب الضرورة والبلوى التي أصابت الشاعر ، وهي ما جعل الشاعر يشعر بانسداد أفق الحل ، وانغلاق أبواب بني البشر أمام رجائه وشكواه واسترحامه ، فقد ضاقت عليه ظلمة السجن واستحكمت فلجأ إلى الله .وهذا الخطاب الديني منتشر في قصائد شعراء السجون في العصر العباسي ، يذكِّر فيه الشاعر السجين السلطان بيوم الحساب، ثم يشكو الشاعر الوحدة القاتلة فيقول :

إذا ما أتانا مُخبرٌ عن حديثِها فرحْنا وقُلنا: جاءَ هذا مِن الدُّنيا!
وتُعجبنا الرُّؤْيا فجُلُّ حديثِنا - إذا نحنُ أصبَحْنا - الحدِيثُ عنِ الرُّؤيا
فإنْ حسنتْ لم تأتِ عجلَى وأبطأتْ وإن قبحتْ لم تحتبِسْ وأتَتْ عجلَى(٣)

ويشكو علي بن الجهم الوحدة في السجن ،ويصور عذابه النفسي من هذه الوحدة ، يقول :

إذا جاءنا السجان يوما لحاجةٍ عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا
ونفرح بالرؤيا فجل حديثنا إذا نحن أصبحنا الحديث عن الرؤيا (٤)

لعل الوحدة هي من أشد ما يواجهه السجين في سجنه بل لعلها من أقوى أدوات السجن لأنها وليدة طول الليالي،وابنة سكون الغرفة القاتمة أو عتمة الحفرة الخانقة ، وقد أهمَّت الوحدة الشعراء العباسيين في سجونهم ، وعذبتهم ، وقتلتهم شر مقتل فضجوا وصاحوا وشكوا من تغوُّل السجن بها عليهم .

١- ابن الجهم ، علي ، ديوانه ،تحقيق خليل مردم بك ،ط٢،لجنة التراث العربي ، ١٩٥٩،بيروت،ص.٩٦

٢-المصدر نفسه ،ص٩٦.

٣- نفسه ،ص٩٦.

٤-نفسه،ص٩. "نسب السيد المرتضى في أماليه هذه الأبيات إلى صالح بن عبد القدوس ، وبعضهم إلى يحيى البرمكي ، ورجح عبد العزيز الحلفي نسبتها إلى عبد الله الطالبي ؛ لأن الجاحظ نسبها إليه في المحاسن والأضداد ، وهي موجودة في ديوان علي بن الجهم .

أما عاصمُ بنُ محمد الكاتب، الذي حبسه أحمدُ بن عبد العزيز بتغير حمولة له، فقد عارض ابن الجهم في قصيدة ذكرت مساوئ السجن،وبعض تفاصيل الحياة اليومية فيه، وما يواجه السجين فيه من تضييق عليه في أكله ونومه وطعامه وشرابه، وقد أتى فيها

بنقيض ما قاله ابنُ الجهم ولعلها قصيدة تستحق أن تسمى قصيدة الشكوى والسجن،يقول :

قالت: حُبست، فقلت: خطبٌ أنكدُ أنحَى عليّ به الزمانُ المرصدُ

شتان بين موقف ابن الجهم من السجن وموقف هذا الشاعر منه ، ذاك يقول :السجن ليس بضائري وهذا يقول إنه خطب أنكد، ويستمر الشاعر في موازنته بين حالين :حاله خارج السجن وحاله داخله ، وهو في موازنته محروق القلب موجعه،واهن العزيمة يأكله القلق والخوف ، وتتلاعب به قضبان السجن ، وهو في موازنته يحكي من قصة السجين كثيرا من تفصيلاتها، فهو يخبر عن طعامه وشرابه ،ونومه ومعاشه، وليله ونهاره ، بأسلوب جميل يعرض فيه صورتين وحالين،ويصف فيه السجن وما يلقيه عليه من أنواع الذل والمنع :

لو كنتُ حراً كانَ سِربي مطلَقاً ما كنتُ أُؤخَذُ عنوةً وأُقيّدُ

أوْ كنتُ كالسَّيفِ المهنَّدِ لم أكنْ وقتَ الشّديدةِ والكَريهةِ أُغمَدُ

أوْ كنتُ كاللّيث الهَصُور لَما رعَتْ فيّ الذئابُ وجذوتيْ تتَوقّدُ

مَن قال: إنّ الحبسَ بيتُ كَرامةٍ فمُكاشرٌ في قولهِ مُتَجَلّدُ

ما الحبسُ إلاّ بيتُ كلِّ مَهَانَةٍ ومَذلّةٍ ومكارِهٍ ما تنفَدُ

إن زارَني فيه العدوُّ فشامِتٌ يُبدي التوجُّعَ تارَةً ويفنّدُ

أو زارني فيه الصَّديقُ فمُوْجعٌ يذرِي الدُّموعَ بزفرةٍ تتَرَدَّدُ

يَكفِيك أنّ الحبسَ بيتٌ لا تَرى أحداً عليهِ مِنَ الخلائقِ يُحسَدُ!

قصرتْ خطاي وما كبرتُ وإنما قصرتْ لأني في الحَدِيدِ مصفَّدُ

في مُطْبقٍ فيه النهارُ مُشاكِلٌ للَّيلِ والظُّلُماتِ فيهِ سَرمَدُ

تمضي الليالِيْ لا أذوق لرَقدةٍ طَعْماً.. فكيفَ حياةُ مَن لا يَرقُدُ

فتقولُ لي عينيْ: إلى كمْ أسهرتْ؟ ويقولُ لي قلبيْ: إلى كمْ أكمدُ؟

وغِذايَ بعْدَ الصّوم ماءٌ مفردٌ كمْ عيشُ من يغذُوْهُ ماءٌ مفردُ؟!

وإذا نهضتُ إلى الصلاةِ تهجُّراً جذبتْ قيوديْ ركبتيَّ فأَسْجُدُ

فإلى متى هذا الشقاءُ مؤكَّدٌ؟ وإلى متى هذا البلاءُ مجدَّدُ؟(١)

في هذا السؤال طرح مسموع،وبيان خطير فإن السجين لا يعرف يوم خروجه لأنه لا يعرف كم يطول سجنه ،فالحكم بالسجن كان لا يقترن بمدة،ولا يحدد بنهاية فهو حرب دائمة مفتوحة على العقول

١- ابن الجهم ن ديوانه ، ص ٨٥.

والأجساد،ويقول:

يا ربِّ، فارحمْ غُربتي وَتَلاَفَنِيْ إنّيْ غريبٌ مفرَدُ مُتلدّدُ(١)

حرَّك اليأس والألم عاطفةَ الشاعر في هذه الأبيات ، ودثَّرها الغضبُ من السجن بدثاره ، فقد جاءت لشتم السجن ، وتصوير المعاناة اليومية التي تلازم السجين ، فالسجن عنده خطب أنكد ، كله ذل وضعف وهو بيت مهانة لا بيت كرامة ، وبيت مذلة لا بيت عزة ، وأما الحياة فيه فهي أسٌّ الظنك ، وأمُّ التعب. ونهار السجن مُشاكل لليله المظلم السرمد، وتحمل هذه الأبيات كل المعاني التي ذكرتها ،وهي معان ليست جديدة وأما الجديد في القصيدة فهو الوصف الدقيق الطويل للحياة اليومية في السجن في قصيدة واحدة وهذا ما لا نجده في قصائد شعراء السجون.ولعل سماح الرقيب لهذه القصيدة بالخروج من بين قضبان السجن وأبوابه المغلَّقة هو ابتعادها عن ذكر السجان والحاكم ولما فيها من تخويف وتهويل من أمر السجن فمن سمعها أرتعد ،وخاف وحسب وزان كلامه وحفظ لسانه ، وثقلت خطواته إلى ما يُنكر،

شكا الشعراء العباسيون في السجون طول الليل وظلمته ، فهو ليل مظلم سرمد لا ينتهي، وهو ليل يورث همَّاً وفزعاً وخوفاً وقلقاً يقول علي بن الجهم :

ليلي عليَّ بهم طويل سرمدُ وهوى يغور به الفراق وينجدُ (٢)

ويقول نصيب الأصغر يشكو كثرة الهموم في السجن وتكالبها عليه ، ويحدد معالم ما يسبب له الوجع والألم والقلق والأرق، ويمنع عن عينيه النوم :

تأوبني ثِقل من الهم موجعُ فأرَّق عيني والخليُّون هجَّعُ(٣)

يكشف البيت عن موضع شكوى الشاعر إنه ألم نفسي عظيم ، عبَّرت عنه كلمة (تأوبني)، وحدَّدتْ معالمَه كلمات: (ثقل) و(همٌّ) و(موجع) و(أرَّق) ؛ فهي كلمات تعبِّر عن قلق الشاعر وتشير إلى عظيم من الخطب يرقد على صدره، ففي كلمة(ثقل) إشارة إلى حجم هذا الهم ، وفي كلمة (الهم) ما يخبرنا عن خوف الشاعر وقلقه،وفي كلمة (موجع) التي

وصف بها الشاعر الهمَّ حديث عن طبيعة العلاقة بين أنواع الهموم والشاعر،وكشفت كلمات الشاعر في البيت عن ضعف الشاعر وانهزامه أمام آلة السجن التي رفعها السلطان في وجهه .

لقد كثرت الشكوى في قصائد شعراء السجون العباسيين وتوجهوا بشكواهم إلى الله،وإلى طيف محبوباتهم ،وإلى أهلهم وزوجاتهم ،وإلى أصدقائهم وإلى السلطان الذي سجنهم ،وإلى الحمام ،وإلى كل ما يرون أنه قادر على حمل رسائلهم ، فهذا أبو العتاهية يخاطب زوجته ويشكو إليها قيد السجن وذله؛ فقد آلمت القيود جسد الشاعر وآذته روحه ، يقول :

١-ابن الجهم ،ديوانه ،ص .٨٥

٢-ابن الجهم ، المصدر السابق، ص.٨٥

٣-الأصفهاني ، الأغاني ، ج٢٣،ص٦.

أيا ويح قلبي من نجيِّ البلابلِ ويا ويح ساقي من قروح السَّلاسل

ويا ويح نفسي ويحها ثم ويحها ألم نَبُحُ يوماً من شباك الحبائلِ(١)

توزع الشاعر بين حالته النفسية في دائرته الذاتية : همه وألمه وحزنه، وحالته الجسدية بقروحها وعللها وثقل سلاسلها ومعاناتها ، وأوجاعها، وتوزَّع حزن الشاعر بين حزن مرئي بدموع غزيرة أضرت عينيه، وحزن خفي كرر الشاعر الحديث عنه في تركيب (يا ويح نفسي)؛ فقد حمل هذا التركيب للقارئ نبعاً من الإيحاءات التي تساعده على تصوُّرِ حالة الشاعر والتعاطف معه .

شكا الشاعر من القيد والسجن والسجان والظلم والوجع، وشكا من تخلي الأصدقاء عنه، يقول أبو إسحاق إبراهيم المعروف بالنديم الموصلي بعد أن سجنه الخليفة العباسي المهدي لإدمانه الشرب،وطالت أيام سجنه ، وتخلى عنه أصدقاؤه :

كثيرُ الأخلاء عند الرخاء فلما حُبستُ أراهم قليلاَ

لطول بلائي ملّ الصديق فلا يأمنن خليلٌ خليلاَ(٢)

آلمت معاملة السجان الشعراء ، وتركت في نفوسهم حقداً عليه عظيما،فصوروه علجاً غليظ القلب حاقداً على كلّ من في السجن ، يقول جعفر بن علبة يصف السجان وطريقة تعامله مع السجناء،وكيف يحول بين السجناء وبين النوم ليلاً ؛ فتقرع الأجراس ليلاً طوال الليل :

إذا بابُ دورانٍ ترنم في الدجى وشُدَّ بإغلاقٍ علينا وأقفالِ
وأظلم ليلٌ قام علجٌ بجُلجُلٍ يدورُ به حتى الصباح بأعمالِ
وحراسُ سوءٍ ما ينامون حوله فكيف لمظلومٍ بحيلةِ محتال(٣)

ويرسم أبو نواس للسجان صورةً قاتمة مستمدة من آلام النفس في السجن وأحزانها ،يقول :

وقيتَ بي الردى زدني قيودا وثنِّ عليَّ سوطاً أو عمودا
وكِّلْ بي وبالأبواب دوني من الرُّقباء شيطاناُ مريدا
وأعفِ مسامعي من صوت رجسٍ ثقيلٍ شَخْصُه يُدعَى سَعيدا(٤)

هذه الكلمات شكوى مرسومة رسما ، السَّجان فيها شيطان ثقيل عاتٍ ، يُثْقِلُ السُّجَنَاءَ بالقيود ، ويثني عليهم بالعمود ، إذا تكلم فرجسٌ صوته ،وإذا نظر أقلقت السجناء نظراته .إنها آثار تجربة ملونة بالظلمة، وموسومة بذل القيد ، وحكاية عن الحبس وأركانه .

١-أبو العتاهية ، ديوانه ، ص.٦٢٥
٢- الأصفهاني ، الأغاني ، ج١٣،ص٣٣-٣٤.
٣-المصدر نفسه ،ج١٣ ،ص ٣٣-٣٤.
٤- أبو نواس ، ديوانه ، ص٤٥٤.

سجن أبو العتاهية لأنَّه تنسَّك وتزهَّد ولبس الصوف وانقطع عن مُلازَمَةِ الخليفة ، فلما آذاه سجنه ، وانتزعت عتمةُ السَّجنِ قُوَتُهُ، وأضعفت معاملة السجّان عزيمته تاب وأعلن توبته، وأعلن ترك الزهد والتصوف إرضاء للخليفة ،يقول :

يا بن عم النبي سمعاً وطاعة قد خلعنا الكساء والدَّراعة (١)

وهذا أبو نواس يعلن توبته ، ويقسم إنه لن يعود لمثل ما سجن عليه، يقول مستعطفاً الخليفة :

وحياة رأسك لا أعو دُ لمثلها وحياة رأسكْ (٢)

كان كثير من خلفاء بني العباسي يخلِّد خصمه في السجن إن لم يقتله ، وكان تمادي الحبس بهم يحمل بعضهم على بذل ماء الوجه والتوبة إلى مضطهديهم وقاتليهم ،ولكن الاستعطاف يكبر ويزيد ويصل بصاحبه إلى مرحلة توسل العفو والرحمة إذا علم السجين بأمر يسوء أهله ، أو خبر عن حياتهم يغصُّ قلبه، كأن يسمع خبرَ وفاةِ عزيز ،أو مرضِ حبيب ، أو رحيلِ قريب ، ونستشف هذه الحالةَ البائسةَ من شعرٍ للحسن بن عبد الله بن الحسن بعد أن أتاه نعي أخيه يزيدَ بنِ معاوية ، يقول :

ارحم صغار بني يزيد إنهم يتموا لفقدي لا لفقدِ يزيدِ

وارحم صغيراً سنه متهدماً في السجن بين سلاسلٍ وقيودِ

ولأن أخذتَ بجرمنا وجزيتنا لنقتلنَّ به بكلِ صعيدِ

أو عدت بالرحم القريبة بيننا ما جدُّكم عن جدَّنا ببعيدِ(٣)

ارتبط اليأس بالشكوى في قصائد شعراء السجون في العصر العباسي، وكانت الشكوى هي الغطاء الذي دثَّر معظم قصائدهم، استعطفوا بها الحكام، وخفَّفوا به ثقل الحديد وغربة السجن،وغضبوا به لأنفسهم ولأرواحهم المخنوقة في ليالي السجن الطويلة، وقد ارتبطت شكواهم بإعلان التوبة ، وطلب الرحمة والعفو من الخليفة.

١- أبو العتاهية ،ديوانه ، ص ٥٧٨.

٢-أبو نواس ، ديوانه ،ص ٤٢٤.

٣- ابن الأثير ، الكامل في الأدب ، ج٥،ص٢٢٢.

الاستعطاف والاسترحام

شاع الاستعطاف في شعر السجون في العصر العباسي شيوعاً كبيراً، وقد سعى الشاعر لاستعطاف السلطان بأساليبَ ووسائل متنوعةٍ مختلفة أساسُها التذلل وإظهار الضعف، وطريقُها المدح والثناء، والفكاهة والدعابة، والطلب والاسترحام ،والتوبة والندم ،فقد جاء في الأخبار أنَّ الرشيد أمر أبا العتاهية بأن ينشد الشعر في الغزل فامتنع عليه أبو العتاهية فحبسه في بيت خمسة أشبار في مثلها، وضيَّق عليه فصاح : الموت الموت، أخرجوني فأنا أقول كلَّ ما شئتم ، ثم أخذ دواة وقرطاساً وكتب :

من لعبدٍ أذلَّه مولاه ما له شافعٌ إليه سواه

يشتكي ما به إليه ، ويخشا ه ،ويرجوه مثل ما يخشاه(١)

جمع الشاعر في البيتين السابقين بين الشكوى والعتاب، والخشية والرجاء ، وطلب العطف وطلب الرحمة ، ولكنهما تحملان أكثر ما تحملان طلب استغاثة ورجاء عاجل عفو،فهو يؤكد فيهما ولاءه للخليفة مولاه ،ويحاول جهده إرضاء المخاطب فيسمعه؛ فالسلطان هو الشافع وهو المولى، وهو الشفيع ، وهو موطن الرجاء ، ولكي ينال الشاعر مكانة في قلب الخليفة صوَّر نفسه عبدا ضعيفا خائفا ذليلاً يشكو همه للسلطان .

ولعل قصيدة المتنبي التي يستعطف بها والي حمص من أكثر قصائد الاستعطاف رقة وأعظمها تأثيراً في النفس ،يقول :

دعوتك عند انقطاعِ الرجا ء والموتُ مني كحبلِ الوريدِ

دعوتُكَ لما برانـي البِلى وأوهنَ رِجلـيَّ ثِقْلُ الحديـدِ

وقد كان مشيُهما في النِّعالِ وقد صارَ مشيُهما في القيودِ

وكنتُ من الناس في محفلٍ وها أنا في محفلٍ كالقرودِ

وفي جُودِ كفَّيكَ ما جُدتَ لي بنفسي ولو كنتُ أشقى ثمودِ(٢)

تعرض المتنبي للتقييد في سجنه لدرجة أثقلت مشيته وأصابتها بالاضطراب ،ولجأ للموازنة بين ما كان عليه وما صار إليه.

لقد تحدى المتنبي السجن والسجان في أول الأمر ، يقول :

كُنْ أيّها السّجنُ كيفَ شئتَ فقد وَطّنْتُ للمَوْتِ نَفْسَ مُعترِفِ

ولكن ليالي السجن على المتنبي طالت، وأيام السجن توالت وبعدت نهايتها عن عينيه، وأوهى طول مكثه في السجن جسده ، وأذله وأوهن عزيمته فقال ما قال وهو يرجو نهاية لمأساته ، وخاتمةً لأحزانه .

١- أبو العتاهية ، ديوانه، دار صادر ،بيروت ،١٩٨٠ ، ص ٣٠.

٢- العكبري ، شرح ديوان المتنبي ، ج١،ص٣٤٦.

وقد يلجأ الشاعر إلى إعلان التوبة ليستعطف ويسترحم فإنَّ الرجوع عن الخطأ منجاة ،ويغلب اقتران الاستعطاف بالاعتراف بالذنب ، فهو مدخل نفسي إلى قلب الخليفة أو الحاكم يشير فيه الشاعر إلى قدرة الخليفة وقوته ، وإلى ضعف الشاعر وحاجته ، محاولاً أن يرضي في الخليفة ما تثيره كرسي الحكم في الإنسان ، فهذا ابن الجهم وقد آذاه سجنه ، يقول للخليفة المتوكل :

ألم تَرَ عبداً عدا طورَه ومولى عفا ورشيداً هدى

فلا عدتُ أعصيك فيما أمرتَ إلى أنْ أحلَّ الثَّرى مُلحِدا(١)

سرى التذلل بين كلمات هذه الأبيات فقد كرَّر الشاعرُ كلمة العفو أكثر من مرة وربطها بعفو الله وهيَّأ كل ما يناسبها من كلمات تجلب العفو من قلب الخليفة .

وهذا المتنبي يقول :

إن أكن قبل أن رأيتك أخطأ تُ فإني على يديك أتوبُ(٢)

وهذا أبو نواس يعترف بذنبه اعترافاً صريحا ، ويعلن حاجته لعطف الخليفة ،فهو السيد الجواد الذي يمنح الرحمة والمغفرة، يقول :

وفي جود كفَّيكَ ما جُدتَ لي بنفسي ولو كنتُ أشقى ثمودِ (٣)

ويقول إبراهيم بن المهدي:

وأستغفرُ الله من زلتي فإني من جرمها واجمُ

فهأنذا العائذ المستجيرُ فاحكم بما شئت ياحاكمُ

فلست إلى زلَّتٍ عائداً يد الدهر ما قعد القائمُ(٤)

وقد يلجا الشاعر إلى تذكير الخليفة بأيام خلت ،كان فيها الشاعر أثيراً لديه مقرباً عنده ،محترمَ الجانب ، مهيباً منعَّماً، وكان الشاعر فيها نعم النديم ونعم السمير ، يقول أبو العتاهية للخليفة :

أجفوتني فيمن جفاني وجعلتَ شأنك غير شأني

ولطالما أمَّنتني مما أرى كلَّ الأماني

حتى إذا انقلب الزمان عليَّ صرتَ مع الزَّمانِ (٥)

١- ابن الجهم ، ديوانه ، ص.٧٧

٢-العكبري،شرح ديوان المتنبي ،ج١ ،ص٣٤٧ .

٣- أبو نواس ديوانه ،ص ٦١٠.

٤- الصولي ، أشعار أولاد الخلفاء، ص.٢١

٥- أبو العتاهية ، ديوانه ن ص ٦٥٥.

ويقول :

تذكَّر أمين الله حقي وحُرمتي وما كنت توليني لعلك تذكرُ (١)

ويقول أبو نواس :

تذكر أمين الله ، والعهد يذكرُ مقامي وإنشاديك والنَّاسُ حُضَّرُ(٢)

ولعل الطريق إلى قلب الخليفة قد تُسهِّلها قصائد المدح والثناء ، ممزوجة بالشكوى والبكاء ، وذكر حال الزوجة والأبناء ، ووصف ما يلاقيه الشاعر من الشدة والعناء ، فلا تكاد قصيدة تخرج من السجن إلا وهي مختومة بختم الطاعة ، والمدح المعجب والتمجيدالمتقن، الخليفة فيها من سلالة النبي، وحامل راية الحق ، أمير المؤمنين ، ومن معشر شرعوا العفو ولم يمنعوه عند اقتدار، يقول أبو العتاهية:

أمين الله أمنكُ خيرُ أمنٍ عليك من التقى فيه لباسُ

تساس من السماءِ بكلِّ برٍّ وأنتَ به تسوس كما تُساسُ(٣)

وأسلوب الفكاهة والمداعبة أسلوب نافع في نيل الرضا والرحمة والعفو ،مُجْدٍ لمن عرف طريقه ، وأتقن سبله ،ولعل أبا نواس من أكثر الشعراء الذين نفعتهم الدُّعابة ، وأفادتْهُم خِفة الروح، يقول في قصيدة جلبت له العفو ، وأخرجته من القبر :

من ذا يكون أبو نواسك إذ حبست أبا نواسك ؟(٤)

هـ- الحنين والشوق :

أظهرت كثيرٌ من الأبيات التي قالها شعراء السجون في العصر العباسي أن السجين في سجنه، كلما هبَّت رياحٌ من ناحية بلاده أو ربعه يذوب حنيناً، وكلما لاح له خيالُ ركبٍ مُيَمِّمٍ وجهَهُ شطرَ بلده أو داره، بعث هواه وسلامه مع هذا الركبِ ممزوجا بالشكوى يقول إبراهيم ابن المدبر :

وإني لأستنشي الشمال إذا جرتْ حنيناً إلى أُلَّاف قلبي وأحبابي

وأهدي مع الريح الجنوب إليهم سلامي وشكوى طول حزني وأوصابي(٥)

ويصف علي بن الجهم إحساسه بطول ليل السجن ،ووحدته وقلقه على أحبته وشوقه إليهم، فيرى الليل في السجن ظلاماً سرمداً أطول من أي ليل ،يقول:

١- أبو العتاهية ، ديوانه ، ص ٥٣٤.

٢- أبو نواس ،ديوانه ، ص ٤٢٦.

٣-أبو العتاهية ، المصدر السابق ،ص٢٣٣.

٤- أبو نواس ، المصدر السابق ، ص٤٢٤.

٥- الأصفهاني ،الأغاني ، ج٢٢ ، ص٣٩٦ .

ليلي عليَّ بهم طويلٌ سرمدُ وهوى يغورُ به الفراق وينجدُ (١)

فالليل ليله يختص به وحده ، يقلقه ويشتت أفكاره ، ويملأ روحه المتكررة في (ليليَّ) ، و(عليَّ)ليكشف عن صراع وخوف يحتلان فكر الشاعر ؛ صراع مع العذاب الجسدي والعذاب النفسي الذي تسببه الوحدة والشوق والحنين للأهل ، وخوفٍ عليهم يقلقه ويمنع النوم عن عينيه.يقول جعفر بن علبة :

فأما الهوى والود مني فطافحٌ إليكِ وجثماني بمكة موثقُ

ولكن عرتني من هواك صبابة كما كنت ألقى إذ أنا مطلقُ(٢)

في هذا البيت معاناة بدأ الشاعر رسمها من كلمة (كما)وأنهى رسمها عند كلمة (مطلق)فهو يحكي لنا عن صراع بين الحياة والموت ، الموت الذي ينظر إليه من كل زوايا السجن ،والحياة التي شعر بها عندما زاره طيف محبوبته ،بعد أن تجاوز أبواب السجن المغلقة ، فقرَّ بهذه الزيارة عينا واغتبط وفرح.وامتلأت نفسه بالحياة فضجت في جوانحه آماله بالحرية فقال:

ألا هل إلى فتيان لهو ولذةٍ سبيلٌ وتهتاف الحنان المُطوَّقُ

وشربة ماءٍ من حدوراء باردٍ جدى تحت أظلال الأراك المُسوَّقِ(٣)

لقد شبه الشعراء العباسيون السجن بالقبر ،وشبَّهوا الحياة فيه بالموت ، وزيارة أطياف الأهل والأحبة يعطيهم أملا ودفعا إلى التمسك بأنفاسهم في ظلمة السجون .ولعل في تذكر الحبيبة في السجن تسلية للهمِّ، وتقوية للنفس ، وانتصارا على الموت من أجل الحياة، فهي ضوء ينظر إليه ويشعره أنَّ هناك حياة، يقول ابن الجهم من سجنه :

ونفرح بالرؤيا فجلُّ حديثنا إذا نحن أصبحنا الحديث عن الرؤيا

فإن حسُنت لم تأتِ عجلى وأبطأت وإنْ قبحتْ لم تحتبس وأتت عجلى(٤)

أما محمد بن صالح فقد طرب فؤاده لرؤية طيف الحبيبة، يقول :

طرب الفؤاد وعاودت أحزانه وتشعَّبت شُعباً به أشجانه (٥)

إنَّ الشوق والحنين إلى ما تعلقت به العين أمر متفق عليه ، جرت به الأخبار ،وتندَّر به السمَّار، ففي كل قلب حديث دفين من ماضيه ،يستفزه إن خلا به ،ويرهقه تجافيه ، فإن كانت هذه حالنا في حياتنا ونحن أحرار من القيود والسلاسل ، بعيدة عن أرواحنا الأغلال ، فكيف بالذين حشرتهم السجون في محشرها ،وضيقت عليهم القضبان في غرفها ، هؤلاء الشعراء العباسيين الذين ألقت يد السلطة بهم إلى غيابة المطبق ،وإلى ليل المطامير ،وبرودة السجون وعنفها .

١- ابن الجهم ، ديوانه، ص٨٥.

٢-الأصفهاني ، الأغاني ، ج١١،ص ٣٧.

٣- الأصفهاني ، المصدر السابق،ج١١، ص١٤٥.

٤- ابن الجهم ، ديوانه ،ص ٩٦.

٥- الأصفهاني ،المصدر نفسه ،ج١٥، ص ٨٩.

"لعل للتأثر البالغ الذي يصدر عنه الشعراء والأدباء، وهم بين جدران سجونهم نتيجة للأحوال المرهقة ، الأثرَ الكبير في إيقاظ ملكاتهم ،وشحذ قرائحهم ، الحال الذي جعل من السجون عاملا مهما في تركيز الأدب ، وإعلاء مقاييسه ، فاتسم أدب المساجين بطابع القوة ، وتميَّز بمظاهر الحياة " (١)

ففي القصائد التي سمح لها القيد بالخروج من السجون ، عاطفة متأججة ، ومشاعر جياشة ، وموسيقا عذبة، وفي القصائد صور من أرواح تألم ، وعواطف تجرح ، وكرامة تمتهن ، وفيها تذلل وتودد ، وفيها غضب وغربة ، وطرب ورهبة ، وتحد واستسلام وفي

شعر السجون حياة قلقة ، وروح مستفزة وأحزان دائمة، وفيها صبر وتصبر ، وشكوى وتذمر .

وهي قصائدُ خفيفة الظل، تلامس القلب وتلتصق بشغافه، فلا ينفك القلب يعتصر دموعها بفيه، ويقلِّب ألمها بيديه ، ويجتر جراحها بما تحمل من ألم وقهر وغضب وفرح وأمل وطرب ، فهي قصائد تلح على الألم والحزن والصبر ،وتستقي من إرادة الحياة دمها ، لا تجد فيها التفافا حول معنى شارد ولا مطاردة وراء محسنات لفظية خارجة عن العاطفة لتزركش بها ألفاظها ، هي قصائد تولد من رحم المعاناة ، مطبوعة بطابع الشاعر يريد .

١- الحلفي ، عبد العزيز ،أدباء السجون ، دار الكتاب العربي ،ص ١١.

الخاتمة

انتهى الباحث من دراسته وبحثه في شعر **السجن** في العصر العباسي إلى أن عددا كبيراً من الشعراء العباسيين المشهورين والمغمورين قد ذاقوا ويلات السجن ،وخاضوا في ظلمته ، وأرِقُوا في عتمته .

وقد وجد الباحث أن أخبار الشعراء السجناء العباسيين ، وآثارهم متفرقة في كتب الأدب والتاريخ على غير نظام ، وكأن القدماء قد تركوا لنا مهمة البحث عنها وتجميعها .

تحدث الشعراء العباسيون في شكواهم من السجن عن سكونه وظلمته وغلظة السجان وإزعاجه وسوطه، وليل السجن الطويل وعتمته ،وتحدثوا عن حياتهم فيه وهم يصارعون الخوف ، ويرقبون الغد، يملأ عليهم أيامهم كابوس الوحدة فيحسبون الأيام ويعدونها عدا.

لم يجد الباحث في قصائد السجن ذكرا للحرِّ أو البرد أو المطر أو الرعد ولا وجد في شعرهم هجاء مقذعا ولا وصفا للحاكم مُنكرا،وما وجد في شعرهم حديثا مفيدا عن السجن غير عذابه النفسي؛وإن جاء في وصفهم معاناتهم حديثٌ مكثف موجزٌ لا يشفي غليل باحث عن صورة القيد والقضبان ،والسجن والسجان وقلة الماء والطعام في قصائد شعراء السجون في العصر العباسي.ولعل سبب ذلك هو الخوف من الرقيب، الذي حاصر الأنفاس والكلمات ،أو أن السجن قد أوقف أو عطل كثيرا من أغراض الشعر في السجن.

ووجد الباحث أن الشعراء العباسيين في مواجهة السجن قد حكمتهم كرب متنوعة مختلفة وظلمات متنوعة ، ونالهم ثقل من العذاب متفاوت الدرجات ، وأنهم قد انقسموا شعبا في مواجهتهم آلة السجن، فمنهم من تحدى وتصدى وجادل وصبر وقاوم وأظهر الجلد ، ومنهم من استسلم وخضع وتذلل واستعطف، وتوسل واسترحم، ومنهم من كابر ثم لانت قانته، وتحدى ثم كبا وضعفت إرادته.

أما أسباب سجن الشعراء فهي متعددة متنوعة ، فيها العجيب المستطرف ،والغريب المستهجن،وفيها أخذ بلا سبب ، وسجن بلا أرب،وفيها مزاجية ممقوتة، وعدالة محمودة.

وجد الباحث أن أصلح مرتكز لفهم شعر السجون هو البدء من لحالة النفسية للسجين في سجنه، وأن الشعر الذي خرج من السجن لا يمكن تذوقه بعيدا عن القيد والسجان والظلمة والقضبان، وصراع السجين مع عالمه الجديد القاسي، ومعاناته المخوفة؛ لأن ذلك مفتاح قصائد المدح والرثاء والاستعطاف والتوسل والبكاء ،والحنين والشوق .

وجد الباحث أن الخوف قد سيطر على قلوب الشعراء في السجن فأكثروا من توسلهم واستعطافهم وأكثروا من الشكوى ، فقد شكا الشعراء ذلَّ القيد ووجعه ، وشكوا الوحدة والوحشة ، وغلظة السجّان ، وضيق السجن ،وطول الليل وطول الأيام ، وشكوا غدر الإخوان وحبائل الأعداء، وشماتة الشامتين، وامتدت شكواهم، وكثرت الأمور التي شكوها .

لقد امتزجت الأغراض في قصيدة السجن فقد جمعت بين الشكوى والحنين، والعتاب والغضب، والرغبة والرهبة، والطرب والشوق، والاستعطاف والتوسُّل والخوف والأمل والوجع.

ولا شك أن شعرا عباسيا كثيرا قد قيل في السجون وأنه غيِّب ودثر بعد أن محقته يد السجان. وأن ما بين أيدينا من هذا الشعر جاءنا مقصوص الجناح مقلم الأظافر .

المراجع والمصادر

- ابن الأثير ،عز الدين ، الكامل في التاريخ ،المطبعة المنيرية ن مصر ، ١٣٥٧هـ .
- الأصفهاني ،أبو الفرج، الأغاني ، دار طبعة الساسي ، مصر ، ١٣٢٣هـ
- وطبعة دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط٢، ١٩٩٧. وطبعة دار الكتب العلمية،بيروت ط٢،١٩٩٢. وطبعة دار صادر، ت إحسان عباس د ت.
- الأصفهاني ، العماد ،خريدة القصر وجريدة أهل العصر ، شعراء العراق ،تحقيق محمد بهجت الأثري،المجمع العلمي العراقي.
- البرزة، وأحمد مختار، الأسر والسجن في شعر العرب تاريخ ودراسة،مؤسسة علوم القرآن ، دمشق،١٩٨٥.
- البغدادي،الخطيب ،تاريخ بغداد ،مصر،١٩٣١.
- البرزة، أحمد مختار، الأسر والسجن في شعر العرب تاريخ ودراسة،مؤسسة علوم القرآن ، دمشق،١٩٨٥.
- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل(هـ٤٢٩)، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف ، القاهرة ،١٩٦٥.
- تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٧٧.
- الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ،شرح وتحقيق الدكتور مفيد محمد قميحة، ج٢، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٨٣.
- الجاحظ ، عمرو بن بحر ، المحاسن والأضداد ، تحقيق عاصم عيتاني ، دار العلوم ، بيروت ، ١٩٨٦.
- ابن الجهم ،علي ، ديوان علي بن الجهم ، تحقيق خليل مردم بك، دمشق ، ١٩٤٩.
- الحلفي ، عبد العزيز ، أدباء السجون ، دار الكتاب العربي ،د ت.
- الحموي ،شهاب الدين ياقوت ،معجم البلدان ،دار المأمون ، مصر ، ١٩٣٨.
- الخزاعي ،دعبل بن علي ، ديوانه ، شرح مجيد طراد ، دار الجليل ، بيروت ، ١٩٩٨،ص٢٥
- أبو دلامة ، ديوانه ، تحقيق إميل بديع يعقوب ، دار الجليل ، بيروت ، ١٩٩٤.
- أبو العتاهية ، ديوان أبي العتاهية ، دار صادر بيروت ، ١٩٨٠.
- العكبري ،أبو البقاء ، ديوان أبو الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري،دار الفكر ،د ت .

– ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي؛ العقد الفريد ، تحقيق مفيد محمد قميحة؛ الناشر: دار الكتب العلمية،١٩٨٣

– الصولي،أبو بكر محمد بن يحيى، أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم،مصر، ١٩٣٦.

– ابن فارس ،أ حمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين، معجم مقاييس اللغة،تحقيق عبد السلام محمد هارون،دار الفكر – بيروت

٦ مجلدات،١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م

– ابن قتيبة ،الشعر والشعراء،مصر ، ١٣٦٤هـ.

– المرزوباني ، أبو عبيد الله بن عمران ، معجم الشعراء ،حيدر آباد الدكن ، القاهرة ، ١٣٣٨هـ.

– المسعودي، علي بن الحسين ،مروج الذهب ومعادن الجوهر ، مطبعة السعادة ، مصر، ١٩٥٨.

– المصري ،عباس علي أحمد ، تجربة السجن عند شعراء العصر العباسي ، رسالة دكتوراه ، د، أمينة محمد جمال الدين مشرفا،جامعة النجاح، ٢٠٠٧.

– ابن المعتز ، عبد الله ، طبقات الشعراء ، تحقيق عبد الستار فراج ،دار المعارف ، مصر،١٩٥٦.

– ابن منظور،أبو الفضل جمال الدين بن مكرم ، ملحق كتاب الأغاني ،أخبار أبي نواس ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢،١٩٩٢.

– أبو نواس، ديوان أبي نواس ، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي ، مصر ١٩٥٣.